فريق مع محنة اللاجئين

بالأمس القريب كانت فاتن في مدرستها الابتدائية تخط على سبورة الصف لوحة إبداعها وتفوقها على قريناتها، واليوم في مدرسة أخرى وصف آخر، وعلى سبورة سوداء كلون حياتها الآن، تخط بدمعها حزن عائلة، ومأساة وطن رافقهم كجرح لا يندمل في رحلة الضياع صوب المجهول. والد فاتن اتخذ من احد ممرات المدرسة المزدحم باللاجئين، ملاذا لعائلته المكونة من سبعة أفراد، بحثا عن الهواء الذي انعدم داخل الصفوف المدرسية في ظهيرة تموزية لاهبة.

□ القائم / يوسف المحمداوي.. تصوير / محمود رؤوف

غياب الخدمات تدفعهم للتمارض

لاجئون: الانتقال إلى بيوت الأقرباء أو العودة إلى الوطن

المحرر مع أحد اللاجئين

طفلة حقيبتها وطن

فاتن، الرابع في تسلسل الأولاد وهي أيضاً في الرابع الابتدائي كما يقول والدها احمد، تعشق المدرسة بجنون، وبكت كثيرا حين أرزمت حقائب الرحيل بل رفضت المجيء من دون حقيبتها المدرسية، لذلك والكلام للمنكوب احمد جلبنا معنا حقيبتها، وطلبت مني اليوم قرطاسية وقصدها من ذلك مراجعة دروسها، قالها وهو يحاول أن يخفي ألف عبرة وحسرة على ماض كان ولوقت قريب جميلا جدا.

لا أخفيكم أن قلبي كان يتلفت مع عيوني مع كل نظرة من عيون هذا الأب المكسور باتجاه طفلته فاتن الحالمة بمدرسة... بدرس قد يعود أو لا يعود.. بمعلمة قد تكون فريسة شظايا المدافع، أو ضحية للجوء مذل، كنت انظر إليه وأنا اردد مع أنفاسه مقطعا قديما من قصيدتي خارج الفصول شعرت بأنه كان يخاطب به فاتنته "تعالي.. ففي القلب نهر قبل.. لخيامنا نحن الغجر.. يحبس أنفاسنا زفير الشتاء ويشهقنا الصيف.. خيام الغجر لا عصافير تفزع النعاس.. وبعد ليل طويل ممل كالحياء.. سنبكي على ورد بمقصلة الإيمان ينزف عصارة العمر.. والخليج رمال من الحاقدين.. على تمرة تعانق ملح اللبن.. على طفلة حقيبتها وطن".

الأطفال سبب النزوح

جلال العلي أحد اللاجئين القادمين من مدينة البوكمال السورية، كان يرتدي الدشداشة العربية ومع دخان سيكارته كانت تتطاير أحلام رسمها بالأمس هو وعائلته، ومع ذلك كانت عيناه مصوبتين باتجاه المساعدات التي جلبتها وزارة الهجرة والمهجرين، بالتعاون مع المفوضية السامية لإغاثة اللاجئين، وهي عبارة عن تجهيزات لفرش النوم.

يقول العلي انه كان دهانا (صباغ) معروف في مدينة البوكمال، ولم يفكر لحظة بمفارقة المدينة، على الرغم من تفاقم الأوضاع الأمنية في سوريا، كما يبين العلي الذي بدت على ملامحه مظاهر القلق والحيرة والخوف، أن سبب النزوح هو خشيته على أطفاله من القنابل العشوائية التي تسقط على مدينته، ومن اجل سلامة عائلته ترك بيته الذي أفنى سني عمره من اجل تشييده وتأثيثه بأجمل الأثاث والمواد المنزلية الباهظة الثمن كما يقول.

كرم عراقي لا يوصف

وبشأن الجهات التي كانت سبب نزوحه وعائلته، أكد العلي عدم وجود أية تهديدات مباشرة له ولعائلته من جهات بعينها، وعزا سبب النزوح إلى ازدياد القصف المدفعي على المدينة من قبل قوات الجيش السوري، مبينا بان أفرادا من الجيش السوري الحر قاموا بإيصاله هو وعائلته إلى منفذ القائم الحدودي.

وبشأن الخدمات التي تقدم لهم من قبل الجانب العراقي، وما هي المعوقات التي واجهوها أثناء تواجدهم في مركز الإيواء، يؤكد العلي بان ما يقدم لنا لا يمكن أن يوصف، فإخوتنا في العراق كانوا كما عهدناهم أهل كرم وضيافة، وقد تجاوزوا حدود المعقول في خدمتنا جميعا وهذا هو معدنهم الحقيقي، الذي لا يتخلون عنه أبدا على الرغم من الظروف الصعبة التي مر بها بلدهم، لكن - والكلام للعلي - كان هدف جميع العوائل التي جاءت من البوكمال هو تجاوز الحدود العراقية ومن ثم الالتحاق بأقاربنا في العراق، وخاصة في محافظة الرمادي، لكننا تفاجأنا بحجزنا في هذه المراكز، ومن ثم فرض هذا الطوق الأمني وعدم السماح لأحد بزيارتنا.

دموع تشاركها دموع

وتمنى العلي على الحكومة العراقية أن تتخذ القرار الذي يسهل عملية خلاصنا من هذا المكان، والذهاب إلى بيوت أهلنا وأحبابنا في العراق كضيوف مؤقتين لحين عودتنا إلى ديارنا بعد زوال هذه المآسي التي تعيشها سوريا.

من غير قصد سألت العلي عن بيته المؤثث وهل هناك من يحميه، شعرت وكأني أيقظت جرحا بطول درب اللجوء في قلبه، وكان جوابه سيلا من الدموع حاول أن يخفيها عن عائلته بمنديل كان يحمله بيده، حاولت أن أتراجع عن السؤال ولكن عبثا فقد سبقت محاولتي دموع الرد، لتشارك عيني عين هذا الذي ضيفني بالأمس كأخ وليس كمحتجز مقهور ومحبط مما يحصل، غسلت دموعي بعرق ظهيرة تموز محاولا الهروب ولكن إلى أين؟ وجميع الممرات تؤدي إلى وجع آخر.

كلنا مع الجيش الحر

عبود جمعة جمال يقول أنا من حي طويبه في دوار المصرية ،جئت مع عائلتي المكونة من ثمانية أفراد، أصغرهم لم يتجاوز السنة، إلى هنا، هروبا من القصف المستمر من قبل القوات الحكومية.

وعن كيفية وصولهم من مناطقهم إلى العراق يقول جمال بعض الناس الذين يملكون سيارات قاموا بنقلنا إلى الحدود، علما - والكلام لجمال - ان قرى مدينة البو كمال لم يطلها القصف الذي كان يتركز في وسط المدينة فقط، وحين سألناه هل القصف هو من الجيش الحكومي أم من الجيش الحر؟ أجاب بعتب: يا أخي الجيش الحر لا يمتلك المدفعية والأسلحة الثقيلة وأسلحته خفيفة، مضيفا بان جميع المواطنين وأنا أولهم من الجيش الحر.

قذائف تهدم الجامع

أثرت جمال حين قلت له بعض الانباء تشير الى ان هناك عناصر من القاعدة والسلفيين بدعم من بعض الدول العربية موجودة داخل الجيش الحر، رد علي بعصبية واضحة، هذا كذب وادعاء شباب سوريا فقط هم الجيش الحر واقسم على ذلك، ثم نادى على مجموعة من الشباب الموجودين معه بالمركز، ليشهدوا على حقيقة ما يقول ويفند الكلام الذي ذكرته، وبالفعل اكد الجميع ما ذهب اليه جمال بأن جميع عناصر الجيش الحر هم اما من العناصر الذين انشقوا من الجيش النظامي، بعد ان تبينت لهم حقيقة النظام البعثي الذي يريد ان يجعلهم اداة لابادة شعبهم، والبعض الاخر من ابناء المدينة الذين تطوعوا من اجل إسقاط هذا النظام الديكتاتوري.

احد الشباب الذين تجمعوا حولي وادعى بان اسمه احمد يقول بالأمس، وقبل خروجنا من منطقتنا، سقطت إحدى القذائف على فرن خبز، وقذيفة أخرى سقطت على دار سكن وراح ضحيتها العائلة بكاملها وعددهم ثمانية أفراد، وهناك قذائف سقطت على جامع وقتلت العديد من المصلين.

جرف بيوت اللاجئين

وعن أسباب احمد في عدم ذكر اسمه هو والعديد من الذين التقتهم "المدى" هناك، يبين أن مبررات ذلك هو الخوف من بطش النظام السوري، موضحا بان هناك العديد من اللاجئين الذين دانوا الإعمال الإجرامية التي يقوم بها الأسد، من خلال بعض الفضائيات ووصلتهم الأخبار الآن بان النظام قام بجرف وتهديم بيوتهم بعد أن ظهروا بصورهم ومسمياتهم على تلك الفضائيات، لذلك هم يتحاشون أن يذكروا أسماءهم الحقيقية كما يقول احمد.

فيما يؤكد احد الشباب باسم سعيد أن العديد من العوائل التي موجودة الآن في البوكمال، وهي نازحة من مدن ادلب، وحمص، وحماه، وحلب ومدن سورية أخرى، كانت تنوي المجيء إلى هنا، ولكنها فضلت البقاء هناك بعد أن عرفت بوجودنا في الحجز، وليس في بيوت أقربائنا كما كنا نتوقع قبل المجيء إلى هذا السجن بحسب قوله.

إضراب وتظاهرات

فيما قاطعه سمير بالقول إنهم غدا وبعد صلاة الجمعة (ويقصد الجمعة الماضية) سيقومون بإضراب يطالبون من خلاله الحكومة العراقية، أما بنقلهم مع أقربائهم الذين ينتظرونهم في باب المركز، وإن تعذر ذلك سيقومون بالعودة إلى مدنهم في سوريا، فالموت بقذائف الأسد أهون علينا من سجن ومعاناة أطفالنا، كما يقول سمير مضيفاً بان العراقيين جميعا وقفوا معنا ولم يجعلونا بحاجة لأي شيء وهذا لم ولن ننساه أبدا، ولكننا والكلام لسمير لم نأت من اجل الأكل والشرب داخل سجن، تجرد فيه أعدادنا يوميا من قبل القوات الأمنية فيه بالصباح والمساء وكأننا مجرمون، بل جئنا كضيوف معززين عند أهلنا وإخواننا من العراقيين، ولكن وللأسف أقولها خاب ظننا في ذلك.

ويضيف سمير بان النظام السوري سيقوم باقتحام مدينة البوكمال قريبا، بعد أن ارتكب جرائم إبادة في مدينة دير الزو واستطاع السيطرة عليها، وهي الآن شبه مهجورة تماما، موضحا بان جيش بشار استخدم في قصفه طائرات الهليكوبتر، والدبابات والدروع والمدافع، وهذا السبب الرئيسي في نزوحنا مع جرحى ذلك القصف الذين فضلوا المجيء معنا على الموت المحقق هناك كما يقول سمير.

لاجئون: الجيش الحر مكون من الذين انشقوا من الجيش الحكومي، ومن شباب المدن السورية، ولا وجود لعناصر القاعدة بينهم

عراقية تثير السوريات

فيما فاجأتني مفيدة عبد الرزاق التي تنحدر أصولها من قضاء عنه "كيف تسجونني مع السوريات وأنا عراقية أباً عن جد؟"، هذا السؤال أثار مشاعر السوريات اللواتي سمعن كلام مفيدة، وكان سؤالهن الممزوج بمرارة العتب "يا أخي هل نحن فعلا مسجونات عندكم .. ولماذا؟"، سؤال رغم سهولته يحتاج إلى ألف جواب مقنع، التفت... لا حكومة بجانبي تجيب، ولا قراراً امتلك لأطلق سراح حفيدة يوسف العظمة، ولا لدي خاتم سليمان لأعيدها لماضيها الجميل متربعة على عرش قاسيون ، وأحظى بفرحة شفاء جرحها الذي يحرقني بالذنب.

هربت باتجاه العراق مذعورا من ولهي به وخشيتي عليه من حروب مضت وأخرى آتية مرددا ما قاله عامر عاصي في ندوب على وجنة الذاكرة "أخاف من الحرب فهي تقاسمني ضوع أنفاسك الحانية... وفي الليل تقطر فوق بياض انتظارك حمرتها القانية... أخاف إذا ما غفوت قليلا ستأخذك الزوجة الثانية".

انتشار الأمراض

عدت لاعتذر للسجينات - عفوا - للسوريات عما قالته مفيدة، عما فعلته الحكومة، عما شاهدته ولم انتفض، لأبرر جريمة اقترفوها سدنة الحكم.

أبدا لسن بسجينات ولكن ما تفعله الحكومة هو للحفاظ عليكم وعلى عوائلكم، وسترون قريبا انتهاء معاناتكم، بعد أن تتأكد القوات الأمنية من خلو اللاجئين من أي إرهابي مندس بينكم، جاء الرد سريعا على لسان أم حسن كما تدعي، إذا كان هذا العمل وتقصد حجز العوائل هو بسبب خوف الحكومة من الرجال الموجودين معنا، فلتتركوهم في السجن وتطلقوا سراح النساء والأطفال وتسمحوا لهم بالذهاب لعوائل أقربائهم بكفالة تحددون شروطها، فيا أخي والكلام لأم حسن، لقد تعقدوا أولادنا مما يعيشونه داخل المركز، والأمراض انتشرت بسبب غياب الخدمات، فليس من المعقول أن يتناوب على دورة مياه هذه المدرسة "٦٠٩"أشخاص، بينهم كبار السن ونساء ورجال وشباب وأطفال، وفيها نغتسل أيضا، ونغسل فيها الملابس والصحون وكل شيء، ومن يمرض فينا تتهمه القوات الأمنية بالتمارض.

محاولة انتحار فاشلة

على ذكر الأمراض والحالات التي حصلت في مراكز الإيواء، يقول احد رجال الشرطة المكلفين بحراسة مستشفى القائم، والذي رفض ذكر اسمه، أن العديد من الحالات حصلت بين صفوف اللاجئين وتمت معالجتها داخل المستشفى الذي تفرغ اغلب كادره الصحي لخدمة اللاجئين، ويذكر الحرس أن هناك العديد من حالات الإجهاض التي حصلت بين اللاجئات وتم إسعافهن في قسم التوليد التابع للمستشفى، مضيفا أن أما لعائلة مكونة من ثمانية أفراد حاولت الانتحار وذلك بسكب النفط على ملابسها، ولكن مشيئة الله وبمساعدة بعض عوائل اللاجئين تم إفشال محاولتها، وإخبار السلطات من اجل معالجتها داخل المستشفى، وعزا تصرفها إلى الظروف النفسية التي يعيشها اللاجئ داخل المركز خاصة وان اغلبهم كانوا يتوقعون بأنهم سيقيمون في بيوت أقربائهم.

مرضى ومتمارضون

وعن الحالات الغريبة الأخرى التي حصلت، يبين الشرطي بان الكثير من اللاجئين يدّعون المرض، وخاصة من كبار السن الذين يعانون من غياب وسائل الراحة داخل المراكز، في ظل وجود أطفال لا ينقطعون عن الصراخ واللعب حتى ساعات متأخرة من الليل، فيفضل هؤلاء هدوء المشفى على صخب المركز، ووصل عدد الراقدين منهم في المستشفى حتى منتصف نهار الجمعة إلى (٥٢) مريضا ومتمارضا كما يقول الحرس.

■ ***غدا حرقة عفوا حلقة أخرى من حكاية فريق "المدى" مع محنة اللاجئين السوريين.***

أحد مراكز الإيواء المخصصة للاجئين السوريين يحتوي على دورة مياه واحدة، مقابل ٦٠٩ لاجئين

كما يرفض الحجز يرفض التصوير